تمهيد

ملاحظة للتبرئة:

لا يمكن أن يكون لكتاب التاريخ من مؤلّف؛ فنحن نسجل التاريخ وننقله، وبعد ذلك يمكن دراسته واستخلاص العبر والدروس منه. وكيف يُكتب تاريخ أحداث ممن لم يعاصرها؟ في كل عام تصدر في العالم آلاف الكتب عن مراحل مختلفة من التاريخ. والغالبية العظمى منها لم يعاصرها الكتّاب، والكثير منها مكررة في الموضوع وفي الحقبة التاريخية. فعلى سبيل المثال، هناك كم هائل وتيار مستمر من الكتب عن تاريخ الثورة الفرنسية، وهناك كتب لا تتوقف عن تاريخ الإمبراطورية الرومانية وحروبها، وهناك كتب تصدر سنويًّا عن الحرب العالمية الأولى وأخرى عن الحرب العالمية الثانية، وأخرى عن الحركة النازية، وعن الحضارة اليونانية، وعن الحضارة الإسلامية، وغيرها من المواضيع التي أثّرت في مسيرة الحضارة الإنسانية عبر الآلاف من السنين.

وهذه كلها نقل من مصادر متواترة عبر القرون، ومن النادر أن يكون هناك مرجع معاصر للأحداث التاريخية، إن وُجِد.

إذن ما هي الحاجة للاستمرار في إصدار الكتب عن المواضيع نفسها في كل عام، وفي كثير من الأحيان تصدر عدة كتب في البلد نفسه وعن الموضوع نفسه؟ إلا أن لكل كتاب منها قيمته العلمية؛ فبالرغم من أن المعلومة بذاتها هي واحدة لا تتغير؛ فإن كل مؤرخ وباحث ينظر إلى الأحداث من زاوية مختلفة تلقي ضوءًا مختلفًا على هذه الأحداث وتجعلها تقدم فائدة جديدة للقارئ. والبحث الجاد يتطلب من الباحث بذل الجهد

والصبر لكي يمسح ما هو متوفر من وثائق وبيانات لعله يقع على معلومة لم ينتبه لها من سبقه من المؤرخين.

وهناك نوعان من كتابة التاريخ: الأول: كتابة التاريخ لمجرد ذكر الأحداث كما هي مذكورة في المراجع، وهذا عمل توثيقي يرتبه الباحث كما يراه مناسبًا؛ والنوع الآخر يعتمد على ما هو موثق بغرض الاستفادة من دروس الماضي وإسقاطها على الحاضر.

واستخدام مصطلح تأليف في كتب التاريخ قد يثير بعض التساؤلات؛ إذ قد يعترض البعض على من يدعي «التأليف» في التاريخ، وهذا الاعتراض مقبول في المفهوم العام؛ فالتاريخ لا يمكن تأليفه بالمعنى الدارج؛ إذ إن التأليف في المعنى الدارج يعني: أن المؤلف قد قام باختلاق الأحداث واختراعها، كما هو الحال في مؤلف القصص الخيالية والروايات. ولكن معنى كلمة تأليف في معجم المعاني الجامع فيما يخص الكتابة هو «مصنف أو كتاب يدوّن فيه علم أو أدب أو فن»، وكذلك ألَّف الكتاب: «كتبه، جمع مادته وصاغ أفكاره». بينما «ألَّف خبرًا: اختلقه».

وإن كان هذا الكتاب لا يقدم جديدًا كمرجع في أحداث التاريخ؛ لأنها موثقة في الكم الهائل من الكتب والمراجع، إلا إن من متطلبات قراءة المستقبل أن يقرأ المرء الماضي، حتى وإن كانت الأحداث موضوع البحث قد وقعت في مناطق جغرافية بعيدة، وحضارات مختلفة.

فهذا الكتاب ينتمي إلى ذلك النوع الثاني من كتابة التاريخ، التي تسعى إلى تقديم الدروس من الماضي، اعتمادًا على الكتب والمراجع المتوفرة عن تلك الفترة التاريخية؛ فهو بحث من خلال المراجع المتوفرة، واستخلاص تسلسل الأحداث كما هي مذكورة في المراجع الموثقة، ولكنها معلومات مرتبة حسب تأثير كل منها في ما يتبعه. وكذلك اختيار الأحداث التي اعتبرتها مهمة ومفصلية في سير الأحداث، وتطابقها مع ما يجري من أحداث في وقتنا الحاضر.

ولذا فإن هذا البحث لا يسرد الأحداث التاريخية الخاصة بثورات الشعوب ويقتصر عليها، وإنما ـ وهذا ما يميّز هذا البحث ـ يحاول ربط

أحداث ثورات الشعوب بما سبقها من أحداث، حسب رؤية الباحث، وما لها من أثر في تهيئة الظروف لقيام ثورات الشعوب.

وكما سيأتي بالتفصيل لاحقًا في هذا الكتاب؛ فإن الباحث قد توصل إلى أهمية الإصلاح الديني الذي مرت به أوروبا في القرن السادس عشر، وأثرت هذه الحركة في ما أتى بعدها من تطورات، وكذلك إلى أهمية عصر التنوير بعد ذلك في القرن السابع عشر، ودور عصر التنوير في وضع البيئة المناسبة لثورات الشعوب التي جاءت بعده؛ مما نتج عنه تهيئة القارئ إلى تفهم أسباب ثورات الشعوب والمطالب التي كانت تحظى بالأولوية على سلم قادة تلك الثورات.

مقدمة

هناك مقولة تتكرر بأن التاريخ يعيد نفسه، وبدراسة الأحداث المهمة في تاريخ الإنسانية نرى أن هذه المقولة تعكس الكثير من الواقع، وهذا شيء منطقي؛ فالإنسان في داخله لم يتغير. لقد تغيرت وتطورت الوسائل والأدوات، ولكن المشاعر والمفاهيم العامة موجودة منذ الأزل؛ وإن تطورت الحرية والأسلوب في التعبير عنها.

وفي أوقات الفتن تختلط الأمور ويحتار الحكيم، وقد تظهر الحالة على غير ما هي عليه في حقيقتها؛ فقد تظهر الأمور المعقدة وكأنها قضية واحدة بسيطة، وقد تظهر القضية الواحدة البسيطة ذات الحل المباشر وكأنها قضايا متشابكة ومعقدة، والتاريخ يزخر بأمثلة من الأخطاء التي ارتكبت في التشخيص لطبيعة الفتنة، مما أدى إلى آثار ونتائج كارثية.

وعندما تكون الفتنة مفتعلة من طرف له مصلحة؛ فإن محرك الفتنة يلجأ غالبًا إلى خلق أحداث موازية بعضها حقيقي وبعضها وهمي، وهذه الأحداث المفتعلة تؤدي إلى التغطية على الحجم الواقعي للفتنة، وكذلك إلى تحويل الأنظار عن المصدر الحقيقي لها.

وهذا الأسلوب ليس بجديد ولا هو من الخيال، وإنما هو شبيه بما يقوم به السحرة الاستعراضيون الذين يشغلون أعين الجمهور وانتباههم بحركات جانبية لا علاقة لها بالخدعة البصرية، وكذلك تتم الخطط العسكرية على التمويه وخداع العدو بهجمات جانبية تشغل العدو عن موقع الهجوم الرئيس وزمانه.

وهذا البحث يختص بثورات الشعوب الأوروبية في عام ١٨٤٨م، وكلمة

(ثورة) ذات مدلول تاريخي مهم في عالمنا العربي المعاصر؛ فقد عانت العديد من الشعوب من سلسلة مما أُطلق عليه «ثورة»، وهي بالحقيقة لم تكن ثورات بل هي انقلابات عسكرية، وهناك فرق كبير بين الثورة والانقلاب؛ فالثورة تطلق على حراك شعبي واسع النطاق من أجل أهداف يطالب بها عامة الشعب، والثورة ـ خصوصًا في بداياتها ـ تكون شاملة لفئات الشعب كافة، وبمشاركة الأطياف السياسية والفكرية كافة، والثورة تكون نتاجًا لضغوط سياسية واجتماعية واقتصادية أضرت بغالبية طبقات المجتمع، والثورة دائمًا تسعى إلى التغيير الشامل في الدولة ومؤسساتها؛ فالغرض ليس فقط السيطرة على الحكومة، ولكنه أهم من ذلك؛ بإدخال التغييرات السياسية والقانونية والاجتماعية في كل مظاهر الحياة في المجتمع.

ولا يمكن أن تكون للثورة ساعة صفر؛ فالثورة تنطلق بشرارة عادة ما يستصغرها النظام، فإذا هي قد تحولت إلى ثورة عارمة تأكل كل ما في طريقها، وإن كانت الثورة نتيجة لتراكمات من الضغوط التي أشرنا إليها أعلاه، إلّا أنها تظهر وكأنها عفوية وعشوائية، ولكنها بالحقيقة يمكن توقع حدوثها بمتابعة الأحداث وطريقة تعامل النظام معها.

والعديد من الثورات تم توقعها من قبل رجال ذوي نظرات ثاقبة، وقدموا النصيحة تلو الأخرى للأنظمة لإصلاح الأوضاع قبل أن يحدث ما لا يحمد عقباه، ولكن دون استجابة من رؤوس النظام التي عادة ما تستجيب للبطانة الفاسدة التي دائمًا ما تصور لها أن الأوضاع تحت السيطرة، وأن الحل الأمني هو الحل الوحيد لاستمرار النظام في السلطة.

وأما الانقلاب فهو تحرك فئة قليلة ذات مصالح مشتركة هدفها هو الاستيلاء على السلطة، وغالبًا ما يكون الانقلاب عسكريًّا، ويكون خاضعًا لتخطيط طويل الأمد، مع تحديد ساعة الصفر وكأنها عملية عسكرية، كما قد يكون الانقلاب بتواطؤ من أحد الأجنحة داخل السلطة، ولكن العامل المشترك في الانقلابات، هو أن الهدف الأساسي هو الاستيلاء على السلطة.

ويحاول القائمون على الانقلاب دائمًا أن يصوروا حركتهم بأنها ثورة، ويصرّون على إطلاق هذه التسمية عليها ويكرهون تسميتها بالانقلاب،

والهدف الحقيقي للانقلاب هو سيطرة فئة قليلة على الحكم لتحقيق مصالحها الخاصة تحت مسميات وشعارات لا صلة لها بالثورة، وقد وقعت في العالم العربي وعدد من دول العالم الثالث سلسلة من الانقلابات العسكرية بمسميات مختلفة، وكلها أدت إلى هدم مؤسسات الدولة وأصّلت مبدأ الصراع على السلطة.

وفي هذا البحث يحاول الباحث أن يأخذ القارئ في رحلة مختصرة ومركّزة حول التحول التاريخي في أوروبا؛ ففي العام ١٨٤٨م قامت ثورات شعبية في أغلب دول أوروبا؛ وإن كانت هذه الثورات لم تستمر لفترات زمنية طويلة، إلّا أنها هزت عروش أوروبا ومهدت الطريق للتغييرات التي جاءت فيما بعد، ووضعت أوروبا على طريق الحداثة والاستعداد للتحول الكبير الذي حدث في القرن العشرين.

ففي هذا الخط الزمني يركز هذا البحث على الثورات التي قامت في عام ١٨٤٨م وتداعياتها التي جاءت فيما بعد، ولكن لكي نصل إلى تلك النقطة من الزمن؛ فمن الواجب أن نسير بشكل سريع ومختصر في المراحل الزمنية التي سبقت هذا التاريخ؛ وذلك لأن هذه الثورات لم تحدث هكذا دون مقدمات.

كما إنه من المفيد أن نبيِّن أن هناك مفاهيمَ مفصلية يتوجب على الشعوب أن تحسمها قبل أن تتمكن من المضي في عملية التطوير والحداثة.